

## العادة ونتائجها

بمقام جبراندي صرط استاذ الفلسفة والرياضيات في مدرسة كتين

(تابع ماقبله)

ولنا دليل آخر على استقلال القنابا والخصوصيات في تأثيرها ما نشاهدُه فيمن  
ينربون وهم صغار على نهذيب يخالف نهذيب اسلافهم وعلى عوائد عاتمة تخالف كل  
المخالفة عوائد شعبيهم وآبائهم فان مولاه اذا نفلوا من مواطنهم وهم صغار ومجتهزاتهم  
لا تزال غضة نثار لافل الفواعل الخارجية وتكيف لما يلائمها فيظهر منهم لا اول الامر  
ان تلك الفواعل التي نفلوا اليها هي الناعلة فيهم دون ما سواها فيشبهون لا اول الامر  
ابناء البلاد التي نفلوا اليها ومجارونهم في اطوارهم وافعالهم وعوائدهم ولا يزالون كذلك  
حتى اذا ادركوا سن المراهقة او بداية سن البلوغ وقفوا عن المجارة واخذت قناباتهم  
وخصوصياتهم ان تظهر آثارها فيهم رغما عن فعل الاحوال الخارجية التي هم فيها فانها  
بعد هذا السن يظهر كنهها لا تفعل فيهم كما تفعل في الآخرين من اهل البلاد ارفاقهم  
في النهذيب والتربيت ذلك كالاستراليين فانه اصبح من الخلق ان اطفال دولاه اذا  
فصلوا عن والديهم الى مدارس انكلترا اما في نفس المهاجر الانكليزية او في بريطانيا  
نفسها كانوا اثناء سنهم الاولى على غابة من العناية والذكاء حتى يجيل انهم ينفقون  
ابناء الانكليز ولا سيما لما برى من سرعة ملاحظتهم فاذا كبروا توقفوا عن التكامل في  
الجهة التي يتكامل فيها ابناء الانكليز فينفقون عنهم وتأخذ قنابات خلفهم وخصوصيات  
شعبهم تظهر فيهم فلا يزيدون بعد ذلك عن ان يكونوا حياثا كبارا وينشد هم  
الميل الى نوع معيشة آباءهم حتى انهم عند سنوح اقل فرصة لم يرجعون الى الاحراش  
حيث آباؤهم يتقيلون اقباء الاشجار وبصطادون الطيور والحجوانات فيروق لهم العيش  
هنالك ويجلو . ولكل امره من دهره ما تعود اسلافه

ويشبه الاستراليين البدو عندنا فان صغارهم اذا ربيعوا بين الحضر ظهروا انجب  
منهم واذكي واسرع إحساساً وملاحظة ومجارون اولاد الحضر الى ان يصلوا سن البلوغ  
فتبدو عليهم حينئذ قناباتهم وخصوصيات البدو فلا يطيقون بعدها الحضر ويحبسون  
المدرسة اذا كانوا فيها حبسا وينضون البدون على ما هم فيه مرارا . وبعض هؤلاء

تربوا في بعض المدارس على قصد ان يهدبوا اخواتهم من البدو فيما بعد فبعد ان استمرروا هنالك مئتيًا وظنّ انهم تخلّفوا باخلاق الحضارة وعادوا الى ما بين ايديهم في ازياء اهل الحضرة ما لشوا أن عادوا الى البدوة واطوارهم المختلفة فتمت فيهم آيات الفزاريّة المشهورة التي فيها ما يشف عن فعل القنبيات وتأثير الخصوصيات المزاجية وهي:

وليس عبادةٍ وقرّ عيني أحبّ اليّ من لبس الشفوف  
وبيت تخفق الارياح فيه أحبّ اليّ من قصر منيف

كل ذلك ما يؤكد لنا ان هنالك تأثيراً لقنبيات المخلق وخصوصيات المزاج بفعل فينا فعلاً مستقلاً عن فعل التربية ازمان الصبوة وتأثير العوائد العامة فيها وفيما بعدها من الازمنة ايضاً

وقد يؤخذ ما مثلاً به من امر الاستراليين والبدو ما بدلنا على انتقال ما استحکم من الاميال الناتجة عن فعل العوائد العامة اجيالاً بالوراثة الى البنين وظهور آثار هذه الاميال فيهم بعد ان يصلوا الى سنّ معلوم وان كانوا حيث النوازل الخارجية لا تنبها فيهم بل بالعكس كالاستراليين بين الانكليز والبدو بين الحضرة ما مرّ بنا تحيلة

ان المتأمل يعلم ما مرّ بنا وان لم نوضعه على جلاء ان المؤثرات فينا المكبنة لانسنا تكيّفًا بلاتما انما هي مؤثرات خارجية على ما فصلناها على ان منها ما هي مؤثرات داخلية كالخصوصيات الشعية التي ذكرناها آخرًا ويوجد ثمّ مؤثرات غير هذه من جنسها اعني داخلية لا يرى بداً من ذكرها وهي خصوصيات اطوار الحياة فان لكل طور ما هو خاص به من الاميال والافكار بمغزل عن النوازل الخارجية بل هذه تبقى على خالها على حين يميّز كل طور بقية مخصوصة من العواطف والانفعالات والاميال العقلية وتلك الخصوصيات لا تنصرف على النمو والتكامل في القوي العاقلة اجمالاً بل تقوم بتغيير يحصل مع التدرج فيها هو مبدأ للانفعال من الاتعاملات النفسانية والعواطف كموجبات اللذة والالم مثلاً فانها تختلف في كل طور عما سواه من الاطوار حتى قد يكون موجبا في الصبوة مثلاً بخلاف كل الاختلاف عنه بعد البلوغ او في الكهولة. فما يلد الصبوة قد لا يلد الشباب وما يموها قد لا يموهه على حين يفاء المؤثرات الخارجية على حالها وما تميل اليه الصبوة قد تنفر منه الكهولة كل النفور وتحفره بل قد يكون من موجبات الما اذا حضر على حين هو في الصبوة من اعظم

موجبات السرور واللذة. ألا ان بعض هذا يعزى الى ما يطرأ من التغير الطليعي في تركيب الجسم المادي كالشبهة الخسبة فإن لها زمان الشباب وإغلب الكهولة اعظم تأثير في احوال الفكر فانها تصرف الافكار وتولمها الى جهة معينة وفي شكل مخصوص وهي فيما قبل الشباب وما بعد الكهولة ما لها من اثر بشعره يو . وكذا الرغبة في كل ما هو جديد وحب المغامر والاسفار واللذة في الاشتغال العقلي ما هو من قنيات الشباب فان هذا اجمع تصحح مكروهة ازمان الشيخوخة فلا يرى الشيخ المغامرة ولا ينجح الى الاسفار ولا يرغب في جديد انما لذته ان يعيش مستكناً يصرف اوقاته في الاشتغال الهينة المستمرة على حالة واحدة وقد بعلل عن ذلك بما يطرأ على الجهاز العصبي اثناء الشباب من سرعة التجدد والاندثار مع النمو والتكامل فيو بخلاف ازمان الشيخوخة فان جارية التجدد والاندثار هذه تكون فيها على ابطاها فضلاً عن ان بعض دقائقه المندثرة قد لا يعود عنها . لكن كثيراً من الاختلافات والتغيرات في احوال العقل لكل طور في ما لا يتأتى شعها وردها الى مصدر مادي سبباً لها وهي مع ذلك ثابتة تظهر مع كل طور بما يلزمنا معه الحكم انها جزء من طبيعتنا الروحانية او قنية لها تظهر في حينها . وربما يورث منها دليلاً عند بعضهم على ارتقاء العقل ووصوله مع الايام تدريجياً الى درجته الحاضرة ما لا تتعرض للبحث عنه الآن إلا أنا نقول ان لكل طور من اطوار الحياة الهبة قنيات معلومة وخصوصيات معينة وان صعب علينا تمييزها لوحدها وفصلها عما سواها فاننا ندركها بما لها من الاثر المحسوس في اختبار كل منا

تم انا اذا اعتمدنا على شهادة الوجدان علنا ان قوة اخرى تفعل على انفسنا وهي الارادة والارادة من الفواعل الداخلية وتأثيرها فينا لا يقل عن تأثير كل ما مرّ جملة بل هي تعدل فعل تلك المؤثرات المار ذكرها تارة ونسب مدداً اخرى ولولاها لكان الانسان عبد الشهوات وآلة بيد المؤثرات الخارجية تدبره كيفما اتجهت وتفعل يو ما تريد

وعلى الارادة يتوقف غلبة النظر في افعالنا على داعي الشهوة فاذا قامت هذه فينا قامت الارادة عليها واعوانها النظر في العواقب ومراعاة الانسب فتصرف شجهرتنا عن متابعة الشهوات والامواه ونحمله على المل بمنقضى النظر فاذا تكرّر فعلها هذا مراراً عودته على مطاوعة النظر ومخالفة الشهوات او قول بعبارة اخرى ان الجهاز يصح

بعد ذلك خبيراً بمعرفة ما ينتضو النظر عالمًا بالطريقة التي يجري عليها اطاعة لداعي الارادة وعلى عكس ذلك فيما تنتضو الشهوة وانالك فاذا تعارضت الشهوة والارادة فاقبل ابدار من الارادة يدعو المجهز الى تلبيةها دون تلك وقلم بعد أن يتعود المجهز على مطاوعة الارادة وبرسخ فيه ذلك ان يعدل الى مطاوعة الشهوة الا اذا كانت هذه على اشدها وتلك على اضعفها ومطاوعته اذ ذلك لا تكون لاختيار منه انما لارغام الشهوة اياه قسراً والعكس بالعكس اعني ان الشهوة اذا اطاعت دون الارادة وتكرر ذلك ازمناً (ولاسيا ايام الصبوة والشباب) تكيف المجهز لما يلائم اعمال الشهوة واصبحت حركاته مطاوعة لها كأنها تجري بداهة عند اقل داعٍ منها فاذا برسخ ذلك اصبح المجهز عبد للشهوة لا يطاوع الارادة الا قسراً وهيئات ان تتوسل الارادة بعد ذلك على الغلبة الا انا كانت من الشدة والعزيمة على غاية ووقفت رقيباً لا تغفل طريقة عين عن مغالبة الشهوة وقهرها كلما قام قائمها ولا بد لها ان تسر المجهز على مطاوعتها وتدرية على طريقة لا يعرفها الى ان يمرن فيها بل لا يكفي وقوفها عند هذا الحد فلا بد من قيامها بعد ذلك رقيباً ومعلمًا تزاول تعليم المجهز وتدريبه على طاعتها الى ان ينسى ما عودته عليه الشهوة (وهيئات ان يكون ذلك) او يصح اخبر بما عودته عليه الارادة منه بما عودته عليه الشهوة وأكثر درية وحذافة وهذا هو الاقرب ولا يخفى ما يكلف هذا الارادة من السهر والتعب وطول الزمان وهو الواقع فان من يتركون لشهواتهم صغاراً ازمان تكون الارادة ضعيفة فيهم يرون من انفسهم كباراً ان شهواتهم مستوية على اعلم كل الاستيلاء فاذا عدوا الى التحرر من تلك العبودية عانوا لذلك اشد السهر والتحرص وربما بنوا السنين يرون في انفسهم عند اقل غفلة من ارادتهم ان شهواتهم في الحماكة عليهم . فاذا تدارك افعال هؤلاء انفسهم قبل فوات الوقت اعني قبل ان تستفك بجهداتهم تمام الاستحكام على ما عودتهم عليه الشهوة من الاميال وذلك يكون في اوائل الشباب او اواسطه امكن لهم بعد سنين من المزاولة والسهر على اعلم ان يتفلبوا على كبح الميل الذي اكسبتهم اياه العادة من مطاوعة الشهوات وذلك بتدريه ميل فيهم يتابع الارادة في احكامها فاذا زاد هذا الميل قوة ورسوخاً عن ميل الشهوة تغلبت بعده ارادتهم وكان الفوز لها في جانب الاعمال والارادة كان الفوز للشهوة (اذا كانت ارادتهم قوية وعلى انتباه كبح جاح الشهوة) . وهؤلاء الذين يعانون تهذيب انفسهم التخلص من نير شهواتهم تراهم عند اقل غفلة منهم يعثرون

ويبدو نفعهم رغماً عما بهم من الفضل على حد ما قيل وواجباً كما يظهر النقص فاضل  
وأما من تركوا أنفسهم الى شهواتهم اثناء الصورة والشباب وكانت ارادتهم على شيء  
من الضعف الخلقى فتتمكن حين منهم وترجع بجهازهم على ما تعودت حتى يتعذر عليهم  
تربية ميل آخر بعكس الميل الاول فامثال هؤلاء لا يبرحوا اصلاحهم بعد ذلك فهم  
من قبيل وكل من شاب على خلقي فلا تصحبه فهو ليس من اهل الهدى

والخلاصة ان الشهوة والارادة على مرافقة دائمة يتنازعان الغلبة في الاعمال (وكل  
ذلك متوقف على العادة) فانما تعين الغلبة للاولى اثناء الصورة وازام الشباب ترجح لها  
الغلبة في سائر العمر الا في النادر فاذا امتد زمان غلبها الى ما بعد ذلك تعينت لها  
الغلب دائماً (وكل من شاب على خلقي فلا يخرج اليك) والعكس بالعكس وسبب ذلك  
ان الجهاز الدماغى كما ذكرنا مراراً يتقش فيه مع التكرار الحالة التي تعودها فاذا  
امتدت المادة مدت ربح انتفاش التي تعودها الجهاز واصبحت ميلاً او ملكة فيه حتى  
اذا بعثه اقل باعث صدر عنه من العمل والحركة بداعة ما كان قد تعودده ولا طاقة  
للادارة بعد ذلك على كبحه او منعه الا باحدى ثلاث طرق الاولى ان ينجي ذلك  
الانتفاش في الجهاز وذلك مستحيل والثانية ان تكون على ابناءه ابداً حتى كلما نداء  
باعث تبعده فلا يصل تأثيره الى الجهاز فتضع بذلك تنبيهه لا علة وهذا قلما يتهيأ لها  
فانها لا تنوى على صرف كل البواعث حتى ولا على صرف بعضها وابعادها فلا بد  
انما من وصول تأثيرها فانتباه الجهاز فعلة وفق المعتاد في اغلب الاحيان

الثالث ان تعيد الى الجهاز فتدربه وتمرنه على مطاوعة باعث اخرى تعاكس  
بواعث الشهوة في تأثيرها حتى اذا درب على ذلك فاصبحت افعاله تجري بداعة اذا  
تنبه (وهذا لا يتم الا بعد العناء والمزاولة اياماً بل سنيناً) كان منها بعد هذا انه اذا انبعث  
باعث الشهوة تبعث الباعث الاخر المعاكس له وتتحكم في الامر حتى تقدم باعثها  
عليه وتنهيه الى الجهاز فاذا تنبه فعلة بداعة وفقاً لما كان قد تعود فعلة فتفوز الارادة  
اذ ذاك وتشمل الشهوة. لكن لا يخفى ان الارادة ينبغي لها ان تكون ابداً على مزيد  
من الانتباه والحرس لكل حركة من حركات الشهوة وبواعثها والا فاذا بعث باعثها  
الجهاز والارادة على غفلة كان لا يقبل لها بعد ذلك في صرفه عن العمل فتقف تنظر  
نظرة الاسف ولا حيلة له في دفع ما هو واقع. وفي المشاهد ان من تعرض له الشهوة  
ولا حيلة لارادته في صرفها او في احضار باعث آخر يعاكسها لا يستطيع مغالبتها فتقلب

عليه ولا غلبة السيد على المسود كالسكرير مثلاً اذا مرّ بجحاة الخمار فشمّ رائحتها فانك  
 تراه يقف بها كأنما شدته مجال فلا يستطيع مجاوزها حتى يشرب فلا حول ولا  
 وعلى مثل هذا أيضاً حال الارادة مع الانفعالات النفسانية كالغضب والحزن وغيرها  
 من الانفعالات التي لما دخل في انفعالنا ومتوجهات افكارنا فان الغضب مثلاً اذا  
 اعتاد الجهاز على مطاوعته اصبح ذلك فيه ميلاً تحصل به تلك المطاوعة بعادة حتى اذا  
 دعا اقل داع له اي للغضب تحرك الجهاز على ما اعتاده من الفعل والحركة وبعد  
 اذ يتحرك لذلك فلا قدرة للارادة على صرفه لان فعله وحركته اصبحت فيه من قبيل  
 البداة. وعليه فن اعتاد الاذعان لفضو تنوّى فيه الغضب على الارادة بمعنى ان  
 الجهاز تعود المطاوعة للغضب فاصبحت العادة ميلاً والحركات بديهية تعجز الارادة عن  
 منعها بعد تحركها لأن الغضب نفسه تنوّى. وبالعكس من اعتاد عدم الاذعان لغضبه  
 تنوّت فيه الارادة وضعف الغضب اعني ان حركات الجهاز لا تكون بديهية فلا يتحرك  
 مطاوعة له الا قسراً وذلك عند قيام الغضب على لشدته وغلبة الارادة كل الغلبة  
 عن المقاومة وهذا هو السر في سهولة مقاومة الغضب بدواً وصرف النفس عما يتضو  
 من العمل ذلك لان حركات الجهاز لا تكون اذ ذاك بديهية او بعبارة اخرى ان الجهاز  
 يكون جاهلاً كهيئة الحركة وطريقها الذي تجري عليه. ومن جهل شيئاً استصعبه فلا يقدم  
 عليه الا مضطراً فاذا رأى امانه طريقاً آخر يعرفه انصرف اليه لاقبل داع وترك الآخر  
 وكذلك الجهاز فانه يكون في بدء الامر يجهل طريق الغضب فيصرف الى اي طريق  
 خلافة ما اعتاده عند اقل اشارة من الارادة واما بعد ذلك فالارادة لا قيل لها  
 بموافقة الغضب وغلبته الا بان تعود الجهاز على مطاوعة بواعث اخرى تعاكس بواعث  
 الغضب فتزاول تدريبه على ذلك وتغريه حتى تصبح حركته بديهية مع تلك البواعث  
 كحركاته مع الغضب. ثم اذا تمّ لها ذلك كان عليها ايضاً اذا حدث ما يبعث دواعي  
 الغضب ان تصرف تلك البواعث او تؤخرها وتقدم عليها البواعث الى عكس فيصرف  
 الجهاز الى مطاوعة تلك البواعث التي احضرتها وبذلك تحصل لها الغلبة عليه وليس الا  
 واما من تعرض له بواعث الغضب ويزعم انه بناومه بما اوتي من قوة الارادة  
 بدون ان يصرف تلك البواعث عن نفسه او يحضر بواعث اخرى تعاكسها فزعمه  
 فاسد وانكالة على قوة ارادته انما هو جهل منه وادعاء فارغ لا يثبت مع التجربة ولا بد  
 من غلبة الغضب على نفسه وانصراف انفعالها على مقتضاة ولهذا يكون من الغضوب

بعد اذ بغضب ان يقول لبيتي انتكرت بكذا وكذا فانه لو كان ذلك لما طواعت  
غضبي وما من معنى لئل كلامه هذا ولا محصل له الا اذا اول بانه مع حضور تلك البواعث  
الاخرى التي تمنى حضورها قبل تصرف نفسه الى وجهة اخرى وفعل آخر وبدونها  
لا يمكنه ان يفعل الا ما فعله

ونرى الكثيرين بغضبون اذا عرض لهم باعت عليه ثم يتدمون بعدها على ما فعلوا  
لكن لا تجددهم الندامة نفعا لانهم يعودون فيغضبون كما غضبوا سابقا اذا عرضت لهم  
ثانياً الاسباب التي عرضت اولاً وما ذلك الا لان ارادتهم ليس تحت سلطانها شيء  
من البواعث الاخرى المعاكسة لبواعث الغضب ولا مهيئاتهم مدربة على مطارعتهم  
والانقياد اليها بداهة فهم بين إما ان ارادتهم لا تقوى على بعث ما يعاكس انفعال الغضب  
من الانفعالات الاخرى ولما ان الجهاز ادرب في مطاوعة الغضب وأبدته في مطاوعة  
تلك وعلى كلا الحالين فالغلبة للغضب دون ما يتضيو النظر والارادة

ولذلك فمن فاته تهذيب عواطفه ايام الصبوة وغلب على نفسه ما لا يستحب من  
الانفعالات كالفضب والغم والنوطة والحزنع واغياه هك لقي من عناء المزاوله  
وتسبب الارادة للتغلب على انفعالاته التي الكثير . هذا وقد لا يتم له شيء من ذلك  
الا اذا وجه انتباهه كل التوجه الى تهذيب نفسه وتعودها على مطاوعة الانفعالات  
الاخرى المعاكسة والانقياد لها كل الانقياد لاقبل اشارة من الارادة . ولا بد له في ذلك  
من معرفة البواعث التي توجب تلك الانفعالات المطلوبة ولا بد له ايضا مع جميع  
هك من غايات سامية ومقاصد محموده برتددا ابداً في نفسه بحيث لا تفارقها ولا تنقب  
عنها ولو زمناً قصيراً

واما دخل العادة في تقوية قهانا المعاقلة وافعالها فبم تحت ارشاد الارادة اولاً  
بما يكون من الدأب على المباحث العقلية ومزاولة الاستغفال بها الى ان يبرن بجهاز  
كل قوة على ما ترده منه الارادة وتصبح حركاته تجري على منقضى البدهة وبعد  
اذ يهبط للارادة كل قدا (وبعضه لا يتم الا بعد اشد المعاناة وطول المدة) يكون  
ان اقل داع او خاطر يصرف مهيئات القوى لاعمالها الخاصة المعتادة دون تكلف  
عناء او تعب ولا تزال تشتغل الى ان تفوز باتمام ما يطلب منها او تكل كلاً طبيعياً  
حتى اذا اراحت ريثما تتعش وبعود اليها نشاطها تعود الى العمل ايضا . ومثل بجهاز  
القوى المعاقلة في ذلك مثل بجهاز الاعضاء البدنية فانها كما في بعض الحركات

المحصوبة ينتضي لما في اول الامر سزاولة معينة وتهذيب خاص تحت عناية الارادة ثم تصح بعد ذلك في حكم البديية هكذا في الانمال الثقلية فانه بعد اعتياد المجهز تصح افعاله بديية وفي كثير من المرات نستفي عن منية الارادة كما فيما لو كان المنية خارجياً فان من تعود الدرس والمطالعة وراء طاولو كان منه اذا رآها بعد ذلك والكتب عليها ان يمد الى المطالعة بداهة فلا يشعر من ندمه الا والكتاب امامه وقد استقرت افكاره بما نيو. وثي من سهولة تعويد العنل حلى الاشتغال بالمباحث الثقلية موقوف على تهذيب العواطف وحسن الميادي ونيل المقاصد وسمو الغايات فان هذه اقل ما يكون في صرف النفس والارادة الى الاقبال على تهذيب النوي العاقلة وتدريبها في المباحث السامية على انواعها. ولا يخفى ايضاً ما للنظرة من الدخل في ذلك ايضاً فان كثيرين من ضعيفي القوى بالطبع وان سبها لهم ما تهيأ من كل ما ذكرناه من البواعث ما امكن الوصول الى بعض بعض ما يصل اليه امثالهم من اصحاب البدائو السامية والنظر السليمة

وليس هذا هو الحد الذي تنف بنا عنده الارادة بل نجاوزه الى فعل المؤثرات الخارجية ما لا بد من عروضه لنا فتعدّل في فعل هذه ايضاً ونخرجنا من حوطة قولم ان الانسان عبد المؤثرات الخارجية او عبد عبد للظروف والاحوال المحطة يو الى ساحة الاختيار والحريّة الانسانية اللتين يفتها بعضهم. ولتبسط الكلام شيئاً في هذا الصدد فانه من المواقف المحرجة التي لا يؤمن فيها من زلة القدم فنقول:

لا يخفى ان المؤثرات الخارجية سواء كانت من قبيل المؤثرات الطبيعية كالتى ترد عن طريق الحواس او من الادية كالمدرسة بالوم وغيره من النوي الباطنة فيما نشاهده حولنا من العوائد والمعتقدات الاجتماعية التي لا بد من تأثرنا بها كما لا بد من تأثرنا بالمدركات الخارجية المحسية نهايو جميعها تقع مرتبة على تنفسي اسبابها وقابلها في الزمان والمكان وهي من هذا القبيل لا دخل للارادة فيها ثم هي اذا بقيت على ترتيبها هذا كان لما تأثير مخصوص وحصل عند النفس من الاعتقاد والتأثر ما هو موافق لهذا الترتيب لكن ترتيب في النفس ترتيباً آخر بحيث ترى النفس علاقة ونسبة بين تلك الواقعات او المؤثرات اختلف تأثيرها طبعاً باختلاف ترتيبها هذا فاختلف الاعتقاد المترتب عليها

(ستأتي البينة)